واقرأ فى كتاب الله هذا المثل : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١)﴾ [البقرة]

وتأمل الاستدلال هنا : إذا كانت الأرض وهى مخلوقة لله تعطى كل هذا العطاء ، فكيف يكون عطاء مَنْ خلقها ؟ إذن : فهم لاشكَّ مفلحون أى : فائزون بالثمرة الطيبة التى تفوق ما بذلوه من مشقة ، كما يزرع الفلاح الأرض فتعطيه أضعاف ما وُضع فيها .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾﴾

بعد أن ذكر الحق سبحانه الكتاب وآياته ، وأن فيه هدى ورحمة لمن اتبعه وفلاحاً لمن سار على هديه يبين لنا أن هناك نوعاً آخر من الناس ينتفعون بالضلال ويستفيدون منه ، وإلا ما راجتْ سوقه ، ولما انتشر بين الناس أشكالاً وألواناً .

لذلك نرى للضلال فئة مخصوصة حظهم أن يستمر وأن ينتشر

(١) سبب نزول الآية : قال الكلبى ومقاتل : نزلت فى النضر بن الحارث ، وذلك أنه كان يخرج تاجراً إلى فارس فيشترى أخبار الأعاجم فيرويها ويحدث بها قريشاً ويقول لهم : إن محمداً - عليه الصلاة والسلام - يحدثكم بحديث عاد وثمود ، وأنا أحدثكم بحديث رستم واسفنديار وأخبار الأكاسرة ، فيستملحون حديثه ويتركون استماع القرآن ، فنزلت فيه هذه الآية .

وقال مجاهد : نزلت فى شراء القيان والمغنيات . [ أسباب النزول للواحدى ص ١٩٧ ] .

لتظل مكاسبهم ، ولتظل لهم سيادتهم على الخَلْق وعبوديتهم لهم واستنزاف خيراتهم .

وطبيعى إنْ وُجِد قانون يعيد توازن الصلاح للمجتمع لا يقف فى وجهه إلا هؤلاء يحاربونه ويحاربون أهله ويتهمونهم ويُشككون فى نواياهم ، بل ويواجهونهم بالسخرية والاستهزاء مرة وبالتعدى مرة أخرى .

وربما قطعوا عليهم سبل الحياة ، كما عزلوا رسول الله ﷺ فى شِعْب أبى طالب ، ثم يُكرهون أهل الحق على الهجرة والخروج من أموالهم وأهلهم إلى الحبشة مرة ، وإلى المدينة مرة أخرى ، لماذا ؟ لأن حياتهم تقوم على هذا الضلال فلا بُدَّ أنْ يحافظوا عليه .

والحق سبحانه يبين لنا أن هؤلاء الذين يحاربون الحق ويقفون فى وجه الدعوة إلى الإيمان يعرفون تماماً أنهم لو تركوا الناس يسمعون منهج الله وداعى الخير لا بُدَّ أنْ يميلوا إليه ؛ لذلك يَحُولُون بين آذان الناس ومنطق الحق ، فهم الذين قالوا للناس : ﴿لا تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ .. (٢٦)﴾ [فصلت]

وما ذلك إلا لأنهم واثقون من لغة القرآن وجمال أسلوبه ، واستمالته للقلوب بحلو بيانه ، فلو سمعتْه الأذن العربية لابُدَّ وأنْ تتأثر به ، وتقف على وجوه إعجازه ، وتنتهى إلى الإيمان .

فإذا ما أفلتَ منهم أحد ، وانصرف إلى سماع الحق أتوْهُ بصوارف أخرى وأصوات تصرفه عن الحق إلى الباطل .

وقوله سبحانه :﴿وَمِنَ النَّاسِ (٦)﴾ [لقمان] من هنا للتبعيض أى : الناس المستفيدون من الضلال ، والذين يسوؤهم أنْ يأتم الناس

جميعاً بمنطق واحد ، وهدف واحد ، وهدى واحد ؛ لأن هذه الوحدة تقضى على تميزهم وجبروتهم وظلمهم فى الأرض ؛ لذلك يبذلون قصارى جهدهم فى الضلال ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ .. ⦗٦⦘ ﴾ [لقمان]

قوله تعالى : ﴿ يَشْتَرِي ⦗٦⦘ ﴾ [لقمان] من الشراء الذى يقابله البيع ، والشراء أنْ تدفع ثمناً وتأخذ فى مقابله مُثمناً ، وهذا بعدما وُجد النقد ، لكن قبل وجود النقد كان الناس يتعاملون بالمقايضة والتبادل سلعة بسلعة ، وفى هذه الحالة فكل سلعة مباعة وكل سلعة مشتراة ، وكل منهما بائع ومُشْتر .

ومن ذلك قوله تعالى فى قصة يوسف عليه السلام : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ⦗٢٠⦘ ﴾ [يوسف]

والمعنى : شروه أى : باعوه .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ .. ⦗٢٠٧⦘ ﴾ [البقرة]

أى : يبيعها ، إذن : الفعل ( شَرَى) يأتى بمعنى البيع ، وبمعنى الشراء .

أما إذا جاء الفعل بصيغة ( اشترى ) فإنه يدل على الشراء الذى يُدفع له ثمن ، ومن ذلك قوله تعالى :﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً ..⦗١٩٩⦘ ﴾ [آل عمران]

وقوله تعالى :﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ⦗١١١⦘ ﴾ [التوبة]

وعادة تدخل الباء على المتروك تقول : اشتريتُ كذا بكذا

وحين نتأمل قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ (٦) ﴾ [ لقمان] نجد أن هذه عملية تحتاج إلى طلب للشىء المشترَى ، ثم إلى ثمن يُدفع فيه ، وليت الشراء لشىء مفيد إنما ﴿ لَهْوَ الْحَدِيثِ (٦) ﴾[لقمان] وهذه سلعة خسيسة .

إذن : هؤلاء الذين يريدون أنْ يصدوا عن سبيل الله تحملوا مشقة الطلب ، وتحملوا غُرْم الثمن ، ثم وُصفوا بالخيبة لأنهم رَضُوا بسلعة خسيسة ، والأدهى من ذلك والأمرّ منه أن يضعوا هذا فى مقابل الحق الذى جاءهم من عند الله على يد رسوله بلا تعب وبلا مشقة وبلا ثمن ، جاءهم فضلاً من عند الله وتكرماً :﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ (٢٣) ﴾ [الشورى]

فأىُّ حمق هذا الذى يوصفون به ؟

وكلمة اللهو : ذكر القرآن اللهو وذكر اللعب فى عدة آيات ، قدَّمت اللعب على اللهو فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٣٢) ﴾ [الأنعام]

وفى قوله تعالى: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ (٢٠) ﴾ [الحديد]

وقدمت اللهو فى قوله تعالى :﴿ وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ (٦٤) ﴾ [العنكبوت]

فقدمت الآيات اللعب فى آيتين ؛ لأن اللعب أن تصنع حركة غير مقصودة لمصلحة ، كما يلعب الأطفال ، يعنى : حركة لا هدفَ لها ، ونقول عنها ( لعب عيال ) وسُمِّيت لعباً ؛ لأن الطفل يلعب قبل أنْ يُكلَّف بشىء ، فلم يشغل باللعب عن غيره من المهمات .

لكن إذا انتقل إلى مرحلة التكليف ، فإن اللعب يشغله عن شيء طُلب منه ، ويُسمَّى في هذه الحالة لهواً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا (١١) ﴾ [الجمعة]

إذن : فاللهو هو الشيء الذي لا مصلحة فيه ، ويشغلك عن مطلوب منك .

فآية سورة العنكبوت التي قدمت اللهو على اللعب تعني أن أمور الاشتغال بغير الدين قد بلغت مبلغاً ، وأن الفساد قد طمَّ واستشرى الانشغال بغير المطلوب عن المطلوب ، فهذه أبلغ في المعنى من تقديم اللعب ؛ لأن اللعب لم يُلهه عن شيء .

لكن ، ما اللهو الذي اشتروه ليصرفوا الناس به عن الحق وعن دعوة الإسلام ؟ إنهم لما سمعوا القرآن سمعوا فيه قصصاً عن عاد وثمود ، وعن مدين وفرعون .. الخ ، فأرادوا أنْ يشغلوا الناس بمثل هذه القصص .

وقد ذهب واحد منهم وهو النضر بن الحارث إلى بلاد فارس وجاءهم من هناك بقصص مسلية عن رستم وعن الأكاسرة وعن ملوك حمْيرَ ، اشتراها وجاء بها ، وجعل له مجلساً يجتمع الناس فيه ليقصَّها عليهم ، ويصرفهم بسماعها عن سماع منطق الحق في رسول الله .

وآخر يقول : بل جاء أحدهم بمغنية تغنيهم أغانيَ ماجنة متكسرة .

ومعنى : ﴿ لَهْوَ الْحَدِيثِ (٦) ﴾ [لقمان] قال العلماء : هو كل ما يُلهي عن مطلوب الله ، وإنْ لم يكُنْ في ذاته في غير مطلوب الله لَهْواً ، وعليه فالعمل الذي يُلهي صاحبه من صناعة أو زراعة .. الخ يُعَدُّ من اللهو إنْ شغله مثلاً عن الصلاة ، أو عن أداء واجب لله تعالى .

ومن التصرفات ما يُعَدُّ لهواً ، وإنْ لم يشغلك عن شيء كالغناء ،

وللعلماء فيه كلام كثير خاصة بعد أنْ صاحبته الموسيقى وآلات الطرب والحركات الخليعة الماجنة ، ولفقهائنا القدامى رأيهم فى هذا الموضوع ، لكن العلماء المحدثين والذين يريدون أنْ يُجيزوا هذه المسألة يأخذون من كلام القدماء زاوية ويُطبِّقونها على غير كلامهم .

نعم ، أباح علماؤنا الأُنْس بالغناء فى الأفراح وفى الأعياد اعتماداً على قول النبى ﷺ لأبى بكر الصديق الذى رأى جاريتين تغنيان فى بيت رسول الله فنهرهما ، وقال : أمزمار الشيطان فى بيت رسول الله ، فقال ﷺ : « دعهما ، فإننا فى يوم عيد »[١]

وكذلك أباحوا الأناشيد التى تقال لتلهب حماس الجنود فى الحرب، أو التى ينشدها العمال ليطربوا بها أنفسهم وينشغلوا بها عن متاعب العمل ، أو المرأة التى تهدهد ولدها لينام .

ومن ذلك حداء[٢] الإبل لتسرع فى سيرها ، وقد قال النبى ﷺ لأنجشة[٣] : « رفقاً بالقوارير »[٤] فشبَّه النساء فى لُطْفهن ورقَّتهن

---

(١) حديث متفق عليه : أخرجه البخارى فى صحيحه (٩٨٧) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٨٩٢) كتاب العيدين من حديث عائشة رضى الله عنها ، وفى لفظ مسلم أنهما كانتا « تغنيان بما تقاولت به الأنصار يوم بعاث » أى « كان غناء فى الشجاعة والقتل والحذق فى القتال ونحو ذلك مما لا مفسدة فيه » قاله النووى فى شرح مسلم ، وكذلك فى لفظه « وليستا بمغنيتين » قال النووى : « أى : ليستا ممن يتغنى بعادة المغنيات من التشويق والهوى والتعريض بالفواحش والتشبيب بأهل الجمال وما يحرك النفوس » .

(٢) الحَدْو : سَوْق الإبل والغناء لها ، فإنه من أكبر الأشياء على سَوْقها وبَعْثها . [ لسان العرب ـ مادة حدا ] .

(٣) قال البلاذرى : كان أنجشة حبشياً يكنى أبا مارية ، وقد كان حسن الصوت بالحداء . [ الإصابة فى تمييز الصحابة ١/٦٨ ] ترجمة (٢٥٩) .

(٤) أخرج البخارى فى صحيحه (٦٢٠٢) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٣٢٣) من حديث أنس ابن مالك قال : كانت أم سليم مع نساء النبى ﷺ ، وهن يسوق بهن سوَّاق ، فقال نبى الله ﷺ : « أى أنجشة ، رويداً سوقك بالقوارير » .

بالقوارير ، فإذا مـا أسرعتْ بهن الإبل هُزَّت بهن الهوادج ، وهذا يشقُّ على النساء .

إذن : لا مانع من كل نصٍّ له غـرض نبيل ، أمـا إنْ أهاج الغرائز فهو حرام - والكلام هنا عن مجرد النص - لأن الخالق سبحانه يعلم طبيعة الغرائز فى البشر ؛ لذلك نسميها غريزة ؛ لأن لها عملاً وتفاعلاً فى نفسك بدون أىِّ مؤثـرات خارجية ، ولها طاقـة لا بُدَّ أنْ تتحرك ، فإنْ أثرْتَها أنت ثارتْ ونزعتْ إلى ما لا تُحمَد عُقْباه .

وسبق أن أوضحنا أن مراتب الشعور ثلاث : يدرك بحواسه ، ثم وجـدان يتكوَّن فى النفس نتـيـجـة للإدراك ، ثم النزوع والعـمل الذى يترجم هذا الوجدان .

ومن رحمـة الله بنا أن الشرع لا يتـدخل فى هذه المسـألة إلا فى مرحلة النزوع ، فيقـول لك : قفْ لا تمدَّ يدك إلى ما ليس لك ، ومثَّلْنا لهذه المسألة بالوردة تراها فى البسـتان ، ويُعجبك منظرها ، وتجذبك رائحـتهـا فتـعشـقهـا وهذا لك ، فإنْ مـددْتَ يدك لتقطفـهـا يقـول لك الشارع : قفْ ليس من حقِّك .

إذن : فـالشـارع الحكيم لا يتـدخَّل فى مـرحلة الإدراك ، ولا فى المـواجيـد إلا فى مسـألة واحدة لا يمـكن الفصل فـيهـا بين الإدراك والوجدان والنزوع ، لأنها جميعـاً شىء واحد ، إنها عملية نظر الرجل إلى المرأة التى لا تحل له ، لماذا هذه المسألة بالذات ؟

قالوا : لأنهـا لا تقف عند حَدِّ الإعجاب بـالمنظر ، إنما يُورثك هذا الإعجاب انفعالاً خاصاً فى نفسك ، ويُورثك تشكلاً خاصاً لا يهدأ ، إلا بأن تنزع ، فرحمةٌ بك يا عـبدى أنا سأتدخل فى هذا الأمر بالذات من أوله ، وأمنعـك من مـجــرد الإدراك ، لأنك إنْ أدركتَ وجــدتَ ، وإنْ

وجـدتَ نزعتَ إلى مـا تجـد فـأثمـت فى أعـراض الناس أو كـبت فى نفسك ، فأضررتَ بهـا ، وربك يريد أنْ يُبرئك من الإثم ومن الإضرار بالنفس ، فالأسلم لكم أنْ تغضُّوا أبصاركم .

إذن : لا تقُل الغناء لكن قُلْ النص نفسه : إنْ حثَّ على فـضيلة فهو حـلال ، وإنْ أهاج الغرائـز فهـو حـرام وباطل ، كالذى يُشـبِّب بالمـرأة ويذكر مـفاتنها ، فهـذا حرام حتى فى غـير الغناء ، فإذا ما أضـفتَ إليه الموسيقى والألحان والتكسر والميوعة ازدادت حرمته وتضاعف إثمه.

أما ما نراه الآن وما نسمعه ممـا يُسمُّونه غناء ، وما يصاحبه من حركات ورقصات وخلاعات وموسيقى صاخبة ، فلا شكَّ فى حرمته .

فكل ما يُخرِج الإنسان عن وقاره ورزانته وكل ما يجرح المشاعر المهـذبة فهو حـرام ، ثم إن الغناء صوت فإنْ خـرج عن الصوت إلى أداء آخر مُهيِّج ، تستعمل فيه الأيدى والأرجل والعينان والوسط .. الخ فهذا كله باطل ومحرم .

ولا ينبـغـى للمـؤمن الذى يمـلك زمـام نفـسـه أن يـقـول : إنهم يفرضون ذلك علينا ، فالمؤمن له بصيرة يهتدى بها ، ويُميز بين الغثِّ والسمين ، والحق والباطل . فكُنْ أنت حكماً على ما ترى وما تسمع ، بل مـا يرى وما يسـمع أهلك وأولادك ، وبيـدك أنت الزمام إنْ شـئتَ سمعتَ ، وإنْ شئتَ أغلقتَ الجهـاز ، فلا حجة لك لأن أحداً لا يستطيع أنْ يجبرك على سماع أو رؤية ما تكره .

ففى رمضان مـثلاً ، وهو شهر للعبادة نصـوم يومه ، ونقوم ليله ، وينبـغى أن نكرمـه ، ونحـتـفظ فيـه بالوقـار والروحـانيـة ، ومع ذلك يخرجون علينا بألوان اللهو الذى يتنافى والصـيام ، فإنْ سألتهم قالوا : الناس مختلفـو الأمزجة ، وواجبنا أن نوفر لهم أمزجـتهم ، لكن للمؤمن

ولاية على نفسه وهو يملك زمامها ، فلا داعى أن تتهم أحداً ما دام الأمر فى يدك ، وعليك أن تنفذ الولاية التى ولاك الله ، فإنْ فعلتَ ففى يدك خمسة وتسعون بالمائة من حركة الحياة ، ولغيرك الخمسة الباقية .

ثم إن ما يحلّ من الغناء مشروط بوقت لا يكون سمة عامة ولا عادة مُلحّة على الإنسان يجعلها ديدنه ؛ لذلك يقول النبى ﷺ : « روِّحوا القلوب ساعة بعد ساعة ».[(١)]

وهؤلاء المغنون والمغنيات الذين يُدخلون فى الغناء ما ليس منه من الحركات والرقصات لا يدرون أنهم يثيرون الغرائز ، ويستعدون على الشباب غير القادر على الزواج ، ويلهبون مشاعر الناس ويثيرون الغيرة .. الخ .

إذن : القضية واضحة لا تحتاج منا إلى فلسفة حول حكم الغناء أو الموسيقى ، فكل ما يثير الغرائز ، ويُخرجك عن سَمْت الاعتدال والوقار فهو باطل وحرام ، سواء أكان نصاً بلا لحن ، أو لحناً بدون أداء ، أو أداء مصحوباً بما لا دخلَ له بالغناء .

لكن ، لماذا يكلفون أنفسهم ويشترون لهو الحديث ؟

العلة كما قال الحق سبحانه : ﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ (٦) ﴾ [لقمان] وفرْق بين مَنْ يشترى اللهو لنفسه يتسلى به ، ويقصر ضلاله على نفسه وبين مَنْ يقصد أن يَضلَّ ويُضل غيره ؛ لذلك فعليه تبعة الضَّلالَيْن : ضلاله فى نفسه ، وإضلاله لغيره .

وقوله : ﴿ لَهْوَ الْحَدِيثِ (٦) ﴾ [لقمان] لا يقتصر على الغناء

---

(١) أورده العجلونى فى كشف الخفاء (١/٥٢٤) وعزاه للديلمى وأبى نعيم والقضاعى عن أنس رفعه . وقال : ويشهد له ما فى مسلم وغيره من قوله ﷺ « يا حنظلة ساعة وساعة » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٥٠) عن حنظلة الأسيدى .

والكلام ، إنما يشمل الفعل أيضاً ، وربما كان الفعل أغلب .

وقوله تعالى : ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴿٦﴾ ﴾ [لقمان] يدل على عدم معرفتهم حتى بأصول التجارة في البيع والشراء ، فالتاجر الحق هو الذى يشترى السلعة ، بحيث يكون نفعها أكثر من ثمنها ، أما هؤلاء فيشترون الضلال ؛ لذلك يقول الحق عنهم : ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ ﴿١٦﴾ ﴾ [البقرة]

والسبيل : هو الطريق الموصل إلى الخير من أقصر طريق ، وهو الصراط المستقيم الذى قال الله تعالى عنه ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ ﴾ [الفاتحة] لذلك نقول فى علم الهندسة : المستقيم هو أقصر بُعد بين نقطتين .

وقوله : ﴿ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ﴿٦﴾ ﴾ [لقمان] أى : السبيل ؛ لأن السبيل تُذكَّر وتؤنث ، تُذكَّر باعتبار الطريق ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴿١٤٦﴾ ﴾ [الأعراف]

وتُؤنَّث على اعتبار الشِّرْعة ، كقوله تعالى : ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يوسف]

هؤلاء الذين يشترون الضلال لإضلال الناس لا يكتفون بذلك ، إنما يسخرون من أهل الصلاح ، ويهزأون من أصحاب الطريق المستقيم والنهج القويم ، ويُسفِّهون رأيهم وأفعالهم .

ثم يذكر الحق سبحانه عاقبة هذا كله : ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ ﴾ [لقمان] أولئك : أي الذين سبق الحديث عنهم ، وهم أهل الضلال ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ ﴾ [لقمان] ووصْف العذاب هنا بالمهانة دليل على أن من العذاب ما ليس مُهيناً ، بل ربما كان تكريماً لمن وقع عليه كالرجل الذى يضرب ولده ليُعلِّمه ويُربِّيه ، فهو يضربه لا ليعذبه ويؤلمه ويهينه ، إنما لكى لا يعود إلى الخطأ مرة أخرى . على حَدِّ قول الشاعر :

فَقَسَا لِيَزْدَجِرُوا ومَنْ يَكُ حَازِماً  فَلْيقسُ أحْيَاناً على مَنْ يَرْحَمُ

إذن: فمن العذاب ما هو تذكير وتطهير أو ترضية وتكريم لمستقبل ، وإنما سُمِّى عذاباً تجاوزاً ، فهو في هذه الحالة لا يُعَدُّ عذاباً.

وفى هذا المعنى قال الزمخشرى[1] رضى الله عنه : الملك يكون عنده الخادم ، فيفعل ما لا يُرضى سيده ، فيأمر صاحب الشرطة أنْ يأخذه ويعذبه جزاء ما فعل ، فيأخذه الشرطى ويُعذِّبه بقدر لا يتعداه ، لأنه يعلم أنه سيعود مرة أخرى إلى خدمة السيد ، فالعذاب فى هذه الحالة يكون بقدر ما فعل الخادم ليس مهيناً له . لكن إنْ قال له : خُذْ هذا الخادم واقْصه عن الخدمة أو افصله ، يعنى : ليست له عودة فلا شكَّ أن العذاب سيكون مهيناً وأليماً .

فالعذاب إنْ سمَّيناه عذاباً يكون إكراماً لمن تحب وتريد أن تطهره ، أما العذاب المهين فهو لمن لا أملَ فى عودته ، والإهانة تقتضى الأبدية والخلود .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾

(١) هو : جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى ( توفى عام ٥٣٨ هـ) صاحب « الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل » وهو من تفاسير المعتزلة الذين قالوا بالمنزلة بين المنزلتين فى حق العصاة والمذنبين فاعتبروهم لا مؤمنين ولا كافرين ، وقالوا بأنه يجب على الله إدخال المؤمنين الجنة ، والكافرين النار ، وقالوا بنفى صفات الله ، وكلها قضايا خالفوا فيها أهل السنة .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا .. (٧) ﴾ [ لقمان] بعد قوله : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ (٦) ﴾ [ لقمان] يدلنا على حرص النبى ﷺ على تبليغ أمر دعوته ، حتى لمن يعلم عنه أنه ضَلَّ فى نفسه ، بل ويريد أنْ يُضل غيره .

ومعنى ﴿وَلَّىٰ (٧)﴾ [لقمان] يعنى : أعرض وأعطانا ( عرض أكتافه ) كما نقول ، وتولى وهو مستكبر ﴿ وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا (٧) ﴾ [لقمان] أى : تكبَّر على ما يُدْعى إليه ، أنت دُعيت إلى حق فاستكبرت ، ولو كنت مستكبراً فى ذاتك لما لجأتَ إلى باطل لتشتريه ، إذن : فكيف تستكبر عن قبول الحق وأنت محتاج حتى إلى الباطل ؟

ولماذا تتكبَّر وليس عندك مُقوِّمات الكِبْر ؟ ومعلوم أنك تستكبر عن قبول الشىء إنْ كان عندك مثله ، فكيفَ وأنت لا تملك لا مثله ولا أقل منه ؟

إذن : فاستكبارك فى غير محله ، والمستكبر دائماً إنسان فى غفلة عن الله ؛ لأنه نظر إلى نفسه بالنسبة للناس ـ وربما كان لديه من المقومات ما يستكبر به على الناس ـ لكنه غفل عن الله ، ولو استحضر جلال ربه وكبرياءه سبحانه لاستحى أنْ يتكبَّر ، فالكبرياء صفة العظمة وصفة الجلال التى لا تنبغى إلا لله تعالى ، فكبرياؤه سبحانه شرف لنا وحماية تمنعنا أن نكون عبيداً لغيره سبحانه .

لذلك نسمع فى الأمثال العامية ( اللى ملوش كبير يشترى له كبير ) فإنْ كان لى كبير خافنى الناس واحتميتُ به ، كذلك المؤمن يحتمى بكبرياء ربه ؛ لأن كبرياء الله على الجميع والكل أمامه سواسية ، لا أحد يستطيع أن يرفع رأسه أمام الحق سبحانه .

إذن : فكبرياؤه تعالى لصالحنا نحن .

وهذا المستكبر استكبر عن سماع الآيات ﴿كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا ⦗٧⦘﴾ [لقمان] أى : ثقَل وصَمَم ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ⦗٧⦘﴾ [لقمان] ونحن نعلم أن البشارة لا تكون إلا فى الخير ، فهى الإخبار بأمر سارٍّ لم يأت زمنه ، كما تبشر ولدك بالنجاح قبل أنْ تظهر النتيجة .

أما البشارة بالعذاب فعلى سبيل التهكّم بهم والسخرية منهم ، كما تتهكم من التلميذ المهمل فتقول له : أبشرك رسبتَ هذا العام . واستخدام البُشْرى فى العذاب كأنك تنقله فجأة من الانبساط إلى الانقباض ، وفى هذا إيلام للنفس قبل أنْ تُقاسى ألم العذاب ، فالتلميذ الذى تقول له : أبشِّرك يستبشر الخير بالبشرى ، ويظن أنه نجح لكن يُفَاجأ بالحقيقة التى تؤلمه .

والشاعر يُصوِّر لنا هذه الصدمة الشعورية بقوله :

كَما أبرقَتْ يَوْماً عطَاشاً غَمامةٌ    فَلمّا رأوْهَا أقْشَعَتْ وتجلَّت[1]

ويقول آخر :

فَأصبْحتُ من ليلى الغَداةَ كقَابِضٍ    علَى الماءِ خَانتْه فُروجُ الأصَابِع

لذلك يقولون : ليس أشرّ على النفس من الابتداء المطمع يأتى بعده الانتهاء الموئس ، وسبق أن مثلنا لذلك بالسجين الذى بلغ به العطش منتهاه ، ورجا السجان ، إلى أنْ جاء له بكوب من الماء ، ففرح واستبشر ، وظن أن سجانه رجل طيب أصيل فلما رفع الكوب إلى فيه ضربه السجان من يده فأراقه على الأرض .

---

(١) انقشع الغيم وأقشع وتقشع الريح أى : كشفته فانقشع . وتقشّع السحاب أى تصدع وأقلع . [ لسان العرب - مادة : قشع ] . والبيت لكثير عزة فى ديوانه ( ص ١٠٧ ) وعزاه له شهاب الدين محمود الحلبى فى « حسن التوسل » ( ص ١٢١ ) .

ولا شكَّ أن هذا آلم وأشدّ على نفس السجين ، ولو رفض السجان أنْ يأتى له بالماء من البداية لكان أخفّ ألماً . وهذا الفعل يسمونه « يأس بعد إطماع » فقد ابتدأ معه بداية مُطمعة ، وانتهى به إلى نهاية موئسة ، نعوذ بالله من القبض بعد البسط .

ثم يذكر الحق سبحانه عقوبة الإضلال عن سبيل الله والتولّى والاستكبار ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٧) ﴾ [لقمان] فعذابهم مرة ( مهين ) ومرة ( أليم ) .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (٨) ﴾

وهؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات فى مقابل الذين يشترون لهو الحديث ليضلوا عن سبيل الله ، وهذه سمةٌ من سمات الأسلوب القرآنى ؛ لأن ذكر الشيء مع مقابله يُوضّح المعنى ويعطيه حُسْناً ، كما فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) ﴾ [الانفطار]

فالجمع بين المتقابلات يُفرح المؤمن بالنعيم ، ثم يفرحه بأنْ يجد أعداءه من الكفار الذين غاظوه واضطهدوه وعذَّبوه يجدهم فى النار .

وقلنا : إن الحق - سبحانه وتعالى - حينما يتكلم عن الإيمان يردفه بالعمل الصالح ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ (٨) ﴾ [لقمان] لأن الإيمان أن تعلم قضايا غيبية فتُصدِّق بها ، لكن ما قيمة هذا الإيمان إذا لم تنفذ مطلوبه ؟

وكذلك فى سورة العصر : ﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (٣) ﴾ [العصر] ففائدة الإيمان العمل بمقتضاه ، وإلا فما جدوى أن تؤمن بأشياء كثيرة ، لكن لا تُوظف ما تؤمن به ، ولا تترجمه إلى عمل وواقع ؛ لذلك إنْ اكتفيتَ بالإيمان ككلمة تقال دون عمل ، فقد جعلت الإيمانَ حجة عليك لا حجةً لك .

ومعنى ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ (٨) ﴾ [لقمان] أى : الصالح ، والحق سبحانه خلق الكون على هيئة الصلاح ، فالشيء الصالح عليك أنْ تزيد من صلاحه ، فإنْ لم تقدر فلا أقلَّ من أنْ تدعَ الصالح على صلاحه فلا تفسده .

ثم يذكر سبحانه جزاء الإيمان والعمل الصالح : ﴿ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (٨) ﴾ [لقمان] فهى جنات لا جنة واحدة ، ثم هى جنات النعيم أى : المقيم الذى لا تفوته ولا يفوتك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) ﴾

حين نتأمل هذه الآيات نلمس رحمة الله بعباده حتى الكافر منهم الذى ضلَّ وأضلَّ ، ومع ذلك فالله رحيم به حتى فى تناول عذابهم ، ألا ترى أن الله تعالى قال فى عذابهم أنه مهين ، وأنه أليم ، لكن لم يذكر معه خلوداً كما ذكر هنا الخلود لنعيم الجنات ، كما أن العذاب جاء بصيغة المفرد ، أما الجنة فجاءت بصيغة الجمع ، ثم أخبر عنها أنها ﴿ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا (٩) ﴾ [لقمان]

والوعد يستخدم دائماً لعدَة بخير يأتيك ، وقلنا : إن العبد يعد ، وقد لا يفى بوعده ؛ لأنه لا يَملك كل مُقوِّمات الوفاء ، أما الوعد إنْ كان من الله فهو محقق لأنه سبحانه يملك كل أسباب الوفاء ، ولا يمنعه أحد عن تحقيق ما أراد ؛ لأنه سبحانه ليس له شريك ، كالرجل الذى أراد أنْ يذم آخر فقال له : الدليل على أن الله ليس له شريك أنه خلقك ، فلو كان له شريك لقال له : لا داعى لأنْ تخلق هذا.

لذلك يعلمنا الحق ـ سبحانه وتعالى ـ أنْ نردف وَعْدنا بقولنا : إن شاء الله حتى نكون منصفين لأنفسنا من الناس ، ولا نُتهم بالكذب إذا لم نَف ، وعندها لى أن أقول : أردت ولكن الله لم يُرِد ، فجعلت المسألة فى ساحة ربك عز وجل .

وبهذه المشيئة رحم الله الناس من ألسنة الناس ، فإذا كلفتنى بشىء فلم أقضه لك فاعلم أن له قدراً عند الله لم يأت وقته بعد ، واعلم أن الأمر لا يُقْضى فى الأرض حتى يُقْضى فى السماء ، فلا تغضب ولا تتحامل على الناس ، فالأمور ليست بإرادة الناس ، وإنما بإرادة الله .

لذلك حين تتوسط لأخيك فى قضاء مصلحة وتُقْضى على يديك ، المؤمن الحق الذى يؤمن بقدر الله يتأدب مع الله فيقول : قُضيَتْ معى لا بى ، يعنى : شاء الله أنْ يقضيها فأكرمنى أن أتكلم فيها وقت مشيئته تعالى ، كذلك يقول الطبيب المؤمن : جاء الشفاء عندى لا بى .

ولو فهم الناس معنى قدر الله لاستراحوا ، فحين ترى المجدّ العامل يُقْصى ويُبعد ، وحين ترى الخامل والمنافق يُقرّب ويعتلى أرفع المناصب فلا تغضب ، وإذا لم تحترمه لذاته فاحترم قدر الله فيه .

فالمسائل لا تجرى فى كَوْن الله بحركة (ميكانيكية) ، إنما بقدر الله الذى يرفع مَنْ يشاء ويضع مَنْ يشاء ، وله سبحانه الحكمة البالغة

فى هذه وتلك ، وإلا لقلنا كما يقول الفلاسفة : إن الله تعالى خلق القضايا الكونية ثم تركها للناس يُسيِّرونها .

والحق سبحانه ما ترك هذه القضايا ، بدليل قوله تعالى : ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا (٥٠) ﴾ [الشورى]

فبعد هذه الآية لا يقل أحد : إن فلاناً لا ينجب أو فلانة لا تنجب ؛ لأن هذه مرادات عليا لله تعالى ، ولو أن العقيم احترم قَدَر الله فى العقم لجعل الله كل مَنْ يراهم من الأولاد أولاده ، وما دام الله تعالى قال ﴿ يَهَبُ (٤٩) ﴾ [الشورى] فالمسألة فى كل حالاتها هبة من الله تعالى لا دَخْلَ لأحد فى الذكورة أو الأنوثة أو العقم . فلماذا - إذن - قبلتَ هبة الله فى الذكور ، ولم تقبل هبة الله فى العقم ؟

وسبق أن تحدثنا عن وأد البنات قبل الإسلام ؛ لأن البنت كانت لا تركب الخيل ، ولا تدافع عن قومها ، ولا تحمل السلاح .. الخ ، فلما جاء الإسلام حرم ذلك وكرَّم المرأة ، وأعلى من شأنها ، لكن ما زالت المفاضلة قائمة بين الولد والبنت .

والآن احتدم صراع مفتعل بين أنصار الرجل وأنصار المرأة ، والإسلام برىء من هذا الصراع ؛ لأن الرجل والمرأة فى الإسلام متكاملان لا متضادان ، وعجيب أنْ نرى من النساء مَنْ تتعصب ضد الرجال وهى تُجَنّ إنْ لم تنجب الولد ، وهذه شهادة منهن بأفضليته .

وكأن الحق - تبارك وتعالى - يعلمنا أن مَنْ يحترم قدره فى إنجاب البنات يقول الله له : لقد احترمتَ قدرى فسوف أعطيك على قدْرى ، فيعطيه الله البنين ، أو يُيسِّر لبناته أزواجاً يكونون أبرَّ به من أولاده وأطوع .

ثم ألاَ ترى أن الله تعالى قدم البنات فى الهبة ، فقال :﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) ﴾ [الشورى] لماذا ؟ لأنه سبحانه يعلم محبة الناس للذكور :﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ (٥٩) ﴾ [النحل]

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) ﴾ [لقمان] العزيز الذى لا يغلب ، ولا يستشير أحداً فيما يفعل ﴿ الْحَكِيمُ (٩) ﴾ [لقمان] أى : حين يعد ، وحين يفى بالوعد .

ثم تنتقل الآيات إلى دليل من أدلة الإيمان الفطرى بوجود الإله :

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ(١) بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ١٠ ﴾

أولاً : ذكر الحق سبحانه آية كونية لم يدَّعها أحد لنفسه من الكفار أو من الملاحدة ، وهى آية موجودة ومُشَاهدة ، وبعد أن قال سبحانه أنا خالق السماء والأرض لم يعارضه أحد ، ولم يأتِ مَنْ يعارضه فيقول : بل أنا خالق السماء والأرض .

وسبق أنْ قلنا : إن القضية تسلم لصاحبها ومدعيها إذا لم يَقُمْ لها معارض ، فإن كانت هذه القضية صحيحة ، والحق سبحانه هو

(١) ماد يميد : تحرَّك واهتزَّ . ومادت الأرض : اضطربت وزلزلت . يقول تعالى : ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ .. (١٠) ﴾ [لقمان] لئلا تميل وتضطرب فالجبال العالية توازن البحار العميقة . [ القاموس القويم ٢/٢٤٦ ] .

الخالق فقد انتهتْ المسألة ، وإذا كان هناك خالق غيره سبحانه فأين هو ؟ هل درى أن واحداً آخر أخذ منه الخَلْق ، ولماذا لم يعارض ويدافع عن حقِّه ؟ أو أنه لم يَدْرِ بشيء فهو إله ( نائم على ودنه ) ، وفى كلا الحالين لا يصلح أن يكون إلهاً يُعبد .

لذلك قال تعالى ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ (١٨) ﴾ [آل عمران] ، فهذه شهادة الذات للذات ، ولم يعارضها معارض فصَحَّتْ لصاحبها إلى أنْ يوجد معارض .

وسبق أن مثَّلنا لذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ بجماعة جلسوا فى مجلس فلما انفضَّ مجلسهم وجد صاحب البيت حافظة نقود لا يعرف صاحبها ، فاتصل بمن كانوا فى مجلسه ، وسألهم عنها فلم يقُلْ واحد منهم أنها له ، إلى أن طرق الباب أحدهم وقال : والله لقد نسيت حافظة نقودى هنا ، فلا شكَّ إذن أنها له وهو صاحبها حيث لم يدَّعها واحد آخر منهم .

والحق سبحانه يقول فى إثبات هذه القضية : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢) ﴾ [الإسراء] أى : لذهبوا يبحثون عمَّنْ أخذ منهم الخَلْق والناس ، وأخذ منهم الألوهية .

فإنْ قالوا نحن آلهة لكن فوقنا إله أكبر يردُّ الحق عليهم :﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾ [الكهف]

وقوله تعالى : ﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا (١٠) ﴾ [لقمان] حين تدور فى أنحاء الكرة الأرضية من شمالها إلى جنوبها ، ومن شرقها إلى غربها تجد السماء تظلّك ، ومع سعة السماء لا تجد لها عمداً ترفعها ، وكلمة ﴿ تَرَوْنَهَا (١٠) ﴾ [لقمان] تحمل معنيين : إما هى فعلاً بغير عمد ، أو لها عمد لكن لا نراها ﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا (١٠) ﴾ [لقمان] يعنى : لا نرى لها

عمداً ، لكن الحقيقة أن لها عمداً لا ترونها بإحساسكم ومقاييسكم .

فإنْ قلت ، فما هذه العمد التى لا نراها ؟ البعض يقول : هى الجاذبية ، وهذا القول مجانب للصواب ، والحق سبحانه يكفينا مؤنة البحث فى هذه المسألة ، فيقول سبحانه : ﴿ .. وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ (٦٥) ﴾ [الحج]

إذن :لا نملك إلا أنْ نقول إنها ممسوكة بقدرة الله ، ولكى لا نحار فى كيفية ذلك يُقرِّب الله لنا هذه المسألة بمثال مُشَاهد لنا ، فالطير يمسكه الله فى جو السماء : ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ ..(٧٩) ﴾ [النحل]

وفى موضوع آخر يقول الحق سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا (٤١) ﴾ [فاطر] إذن : فهو سبحانه يمسكها بقانون ، لكن لا نعرفه نحن ولا ندركه .

والسماء فى اللغة : كل مَا علاك فأظلّك ، فالغيم الذى يعلوك وتراه قريباً منك يُعد من السماء بدليل قول الله تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً (١٠) ﴾ [لقمان] والماء ينزل من الغيم ، لا من السموات العلا ، والفرق بينهما أن الغيم تراه فى مكان دون آخر ، وتراه مُتقطعاً منفطراً ، أمَّا السماء العليا فهى بشكل واحد ، لا ترى فيها من فطور .

وحين تكلم الحق سبحانه عن الأرض والسماء قال : إنها سبع سماوات ، ولم يقُلْ سبع أراضين ، بل ﴿وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ (١٢) ﴾ [الطلاق] فدلَّ على أن الأرض سبع كالسماء ، وإنْ كانت السماء كل ما أظلّك ، فالأرض كل ما أقلّك ، لكن أين هذه الأرَضين السبع ؟

لقد أخبرنا القرآن الكريم أن السماوات سبع ، وأخبرنا النبى ﷺ أنه مرَّ بها فى رحلة المعراج فقال فى الأولى كذا وكذا ، وفى الثانية كذا وكذا ، وما دامتْ السماء كل ما أظلك ، والأرض كل ما أقلك فالخَلْق

فى السمـاء الأولى مثلاً سـماؤهم السماء الثـانية ، وأرضـهم سـماؤنا الأولى ، وهكذا وهكذا .

ثم يقـول سـبحـانه : ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ (١٠) ﴾ [لقمان] أى : الجبال الراسية الثابتة المتصلة بالأرض اتصالاً وثيقاً بحيث لا تتخلخل منهـا ، والعلة فى خَلْق الجـبـال الرواسى على الأرض ﴿ أَن تَمِيدَ بِكُمْ (١٠) ﴾ [لقمان] أى : تميل وتضطرب بكم ، ولو أن الأرض مخلوقة على هيئة الثبات لما احتاجت إلى ما يثبتها .

إذن : فالأرض متـحركة ، وما خُلقت الجبـال إلا لتثبيتـها وضبط حركتها ، فـدلَّت هذه الآية على صدْق النظرية القائلة بدوران الأرض ، كذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ (٨٨) ﴾ [النمل]

إذن : فللجبال حـركة مرتبطة بحركـة الأرض ، فإنْ قُلْتَ : ولماذا لا نراها ؟ نقـول : لأن وحدة الـمكان تجعلـك لا تدرك هذه الحركـة ، فالمتحد فى مكان لا تختلف مرائى الأشياء بالنسبة له .

فلو تصوَّرنا أن هذا المسـجد الذى يجمعنا صُـمِّم على هيئة رَحَىً تدور بنا ، فـهل نشـعـر بدورانـه ونحن ندور بدورانه ؟ لا نشـعـر ، لمـاذا ؟ لأن مواقـعنا من بعض ثابتـة لا تتـغيـر ، كـذلك موقـعنا من المكان ؛ لذلك لا نشـعر بالحـركة ، لكن نشـعر بالحـركة حين نـقيس متحركـاً بثابت ، فلو فتحنا الباب مثلاً أو الشـباك ورأينا ما هو خارج المسجد ، عندها نشعر أننا نتحرك .

إذن : لا يمكن لمَنْ على الأرض أن يشعر بحركـتها ؛ لأنه يتحرك معهـا ، وما دامت الجبال أوتاداً فى الأرض وهـى - أى الجـبال - تمر مرَّ الـسحاب فـلا بُدَّ أن الأرض كذلك تمـر وتتحـرك بنفس الحـركة ،

وحركة الجبال ليست ذاتية ، إنما هى تابعة لحركة الأرض ، والحق سبحانه شبَّه حركة الجبال بحركة السحاب ، والسحاب حركته غير ذاتية ، إنما هى تابعة لحركة الرياح .

ثم يذكر الحق سبحانه علة أخرى لخَلْق الجبال : ﴿ وبَثَّ فيها من كُلِّ دابَّةٍ (١٠) ﴾ [لقمان] وسبق أنْ أوضحنا أن الجبال تمثل مخازن للقوت الذى به قوام الحياة للإنسان وللحيوان والذى ينشأ من الزرع ، وبيَّنا أن الطبقةَ الخارجية للجبال تتفتتْ بعوامل التعرية ، ثم يحملها ماء المطر إلى الوديان فتزيد من خصوبة الأرض بمقدار كل عام ، ومن الجبال أيضاً يتكون الماء فى الأنهار أو فى مسارب الأرض فنخرجه حين الحاجة إليه .

ومن حكمته تعالى أنْ جعل الجبال راسية ثابتة ، وجعلها صلدة وإلا لو كانت هشّة لأذابتها الأمطار وفتتها فى عدة سنوات ، ثم حرمت الأرض من الخصوبة التى تستمدها من الجبال ؛ لذلك يقول الله تعالى : ﴿ وما نُنَزِّلُهُ إلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١) ﴾ [الحجر] فمع زيادة السكان تزداد المساحة الخِصْبة التى يُكوِّنها الغِرْين الذى يتفتت من الجبال عاماً بعد عام .

واقرأ إنْ شئتَ قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بالَّذى خَلَقَ الأَرْضَ فى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فيها رَوَاسِىَ من فَوْقِهَا وَبَارَكَ فيها وَقَدَّرَ فيها أَقْوَاتَهَا .. (١٠) ﴾ [فصلت]

فالجبال جعلها الله راسية حتى لا تضطرب بنا الأرض ، وجعلها صلبة لأنها مخزن الخِصْب الذى يُمدُّنا بالزرع الذى به قوام حياتنا .

ومن رحمة الله بالإنسان أنْ جعل فيه ذاتية استبقاء الحياة ، فإن مُنِع عنه الطعام أو الشراب تغذَّى من المخزون فى جسمه ، فيأخذ

أولاً من الدهن ، ثم من اللحم ، ثم من العظم ؛ لذلك قلنا : إن العظم هو آخر مخازن القوت في جسم الإنسان ، وفي ضوء ذلك نفهم قول سيدنا زكريا : ﴿إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي (٤)﴾ [مريم]

يعني : قد بلغتُ آخر مرحلة من مراحل استبقاء الحياة .

فكان من رحمة الله بالخَلْق أنْ جعل حتى شَرَه الإنسان للطعام والشراب رحمة به ، حيث يتحول الزائد عن طاقته وحاجته إلى مخزون في جسمه ، فإذا انقطعتْ به السُّبُل أو تعذَّر عليه الطعام والشراب استمد مما في جسمه .

كذلك من رحمة الله بالإنسان أنْ جعله يصبر على الطعام إلى شهر ، ويصبر على الماء من ثلاثة أيام إلى عشرة بحسب ما في جسمه من مخزون الطعام والشراب ، أما الهواء فلا يصبر عليه إلا بمقدار شهيق وزفير ؛ لذلك تتجلى رحمته تعالى وحكمته في خَلْقه بألاَّ يُملِّك الهواء لأحد ، فلو ملَكه عدوك لمتَّ قبل أن يرضى عنك .

وقوله : ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ (١٠)﴾ [لقمان] بث أي : نشر ، والدابة : كل ما له دبيب على الأرض ، والدبيب بحسب ما يدبّ على الأرض ، وكل ما يمشي على الأرض له دبيب نسمعه في الحيوان الضخم مثلاً ، لكن لا نسمعه في النملة مثلاً ، فهي أيضاً لها دبيب بدليل قولنا : فلان يسمع دبّة النملة ، إذن : لها دبيب على الأرض ، لكن أذن مَنْ التي تستطيع أنْ تسمعه ؟

وقوله تعالى : ﴿مِن كُلِّ دَابَّةٍ (١٠)﴾ [لقمان] كل تعني سوراً كلياً يضم كل ما له حركة ودبيب على الأرض ، يعني : كل ما يقال له دابة بداية من النملة أو الفيروسات الآن إلى أكبر حيوان على الأرض . وقوله ( من ) تتدرج من الصغير إلى الكبير فتدلُّ على الشمول .

ومن هذه الدواب ما أحله الله ومنها ما حرمه ؛ لذلك يقول البعض : ما دام الله حرَّم هذه الحيوانات ، فما الضرورة فى خَلْقها ؟ وهل كل شيء مخلوق يُؤكل ؟

لا ، ليس كل مخلوق من الحيوانات يؤكل ؛ لأن له مهمة أخرى يؤديها .

ولو تأملت ما حُرِّم عليك لوجدته يخدمك فى ناحية أخرى ، فمنه ما يمد الحيوانات التى تأكلها ، ومنه ما فيه خاصية تحتاج إليها فى غير الأكل ، فالثعبان مثلاً لا نرى فيه إلا أنه مخلوق ضار ، لكن ألم نحتَجْ إلى سُمِّه الآن ، ونجعله مَصْلاً نافعاً ؟ ألسنا ننتفع بجلوده ؟ الخ ، فإذا كنا لا نأكله فنحن نستفيد من وجوده فى نواحٍ أخرى .

كذلك الخنزير مثلاً ، البعض يقول : ما دام الله تعالى حرمه ، فلماذا خلقه ؟ سبحان الله ، هل خلق الله كل شيء لتأكله أنت ؟ ليس بالضرورة أنْ تأكل كل شيء ، لأن الله جعل لك طعامك الذى يناسبك ، أتأكل مثلاً البترول ؟ كيف ونحن نرى حتى السيارات والقطارات والطائرات لكل منها وقوده المناسب له ، فالسيارة التى تعمل بالبنزين مثلاً لا تعمل بالسولار .. الخ ، فربك أعطاك قُوتَك كما أعطى لغيرك من المخلوقات أقواتها .

لذلك ؛ إذا نظرت فى غابة لم تمتد إليها يد الإنسان تجد فيها جميع الحيوانات والطيور والدواب والحشرات .. الخ دون أنْ تجد فيها رائحة كريهة أو منظراً مُنفِّراً ، لماذا ؟

لأن الحيوانات يحدث بينها وبين بعضها توازن بيئى ، فالضعيف منها والمريض طعام للقوى ، والخارج من حيوان طعام لحيوان آخر.. وهكذا ، فهى محكومة بالغريزة لا بالعقل والاختيار .

وكل شيء لا دَخْلَ للإنسان فيه يسير على أدقِّ نظام فلا تجد فيه فساداً أبداً إلا إذا طالتْه يد البشر ، ولك أنْ تذهب إلى إحدى الحدائق أو المتنزهات فى شم النسيم مثلاً لترى ما تتركه يد الإنسان فى الطبيعة .

لكن ، لماذا وُصف الإنسان بهذا الوصف ؟ ولماذا قُرن وجوده بالفساد ؟ نقول : لأنه يتناول الأشياء بغير قانون خالقها ، ولو تناول الأشياء بقانون الخالق عز وجل ما أحدث فى الطبيعة هذا الفساد .

وسبق أنْ بيَّنا أن الإنسان لا قدرةَ له على شيء من مخلوقات الله إلا إذا ذلَّلها الله له ويسَّرها لخدمته ، بدليل أن الولد الصغير يركب الفيل ويسحب الجمل ويُنيخه ويحمله الأثقال فى حين لا قدرةَ لأحدنا على ثعبان صغير ، أو حتى برغوث ، لماذا ؟ لأن الله تعالى ذلَّلَ لنا هذا ، ولم يُذلِّل لنا هذا .

ثم يقول تعالى : ﴿ **وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ** ⑩ ﴾ [لقمان] من السماء : أى من جهة العلو ومن ناحية السماء ، وإلا فالمطر لا ينزل من السماء ، إنما من الغمام ﴿ **فَأَنْبَتْنَا فِيهَا ..** ⑩ ﴾ [لقمان] أى : فى الأرض ﴿ **مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ** ⑩ ﴾ [لقمان] زوج أى : نوع من النبات ، فهى كلمة تدل على مفرد ، لكن معه مثله ، والبعض يظن أنها تعنى اثنين وهذا خطأ ؛ لذلك نقول عن الرجل زوج ، وعن المرأة زوج رغم أنه مفرد ، لكن قُرن بغيره .

وقال تعالى عن التكاثر : ﴿ **مِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ..** ㊾ ﴾ [الذاريات] فَسمَّى الذكر ( زوج ) وسمَّى الأنثى ( زوج ) .

ومثلها كلمة ( توأم ) فهى تدل على مفرد ، لكن مفرد لم يُولَد

وحده إنما معه غيـره ، والبعض يقول ( توأم ) ويقصد الاثنين ، إنما الصواب أن نقول هما توأمان .

ووصف الحق سـبحـانه الزوج أى النوع من النبـات بأنه ﴿ كَرِيمٍ (١٠) ﴾ [لقمان] لأنه يعطيك بكرم وسخاء ، فالحبة تعطيك سبعمائة حبة ، وهذا عطاء المخلوق لله ، فما بالك بعطاء الخالق عز وجل ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (١١) ﴾

والكلام هنا مُـوجَّه للمكابـرين وللمعـاندين الجاحـدين لآيات الله : ﴿ هَٰذَا .. (١١) ﴾ [لقمان] أى : ما سبق ذكْره لكم من خَلْق السماوات بغير عـمد ، ومن خَلْق الجبال الرواسى والدواب وإنزال الـمطر وإحياء النبات .. الخ .

هذا كله ﴿ خَلْقُ اللَّهِ .. (١١) ﴾ [لقمان] فلم يدَّعه أحد لنفسه ، وليس لله فيه شريك ﴿ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ .. (١١) ﴾ [لقمان] أى : الذين اتخذتموهم شركاء مع الله ، ماذا خلقوا ؟

وليس لهذا السؤال إجابة عندهم ، حيث لا واقع له يستدلون به ، ولا حـتـى بالمكابرة ؛ لأن الـحق أبلـج[1] والبـاطـل لجلج[2] ، لذلك لم

---

(١) أبلج الحق : ظهر . ويقال : هذا أمر أبلج أى واضح . والبلوج : الإشراق وصبح أبلج بيِّن البلج أى مشرق مضىء . وكذلك الحق إذا اتضح . [ لسان العرب ـ مادة : بلج ] .

(٢) اللجلج : المختلط الذى ليس بمستقيم . [ لسان العرب ـ مادة لجج ] .